

الاستعمار الأوروبي وجريمة التجارة بالإنسان الإفريقي



د. أشرف صالح محمد *

كان (نظام الرّق) نظاماً معترفاً بـه منذ العصـور القديمـة، وكان موجوداً فـي غالبيـة المجتمعات، فقد اشتغلت المجتمعات الإفريقية منذ قرون بتجارة الرقيق عبر الصحراء الكبرى إلى أوروبا الرومانية والشرق الأوسط، ولكنه كان نشاطاً عارضاً غير منظّم، كان الهدف منه تزويد أمم البحر المتوسط التجارية بالجنود، وخدم المنازل، والعمالة الزراعية.

وبمـرور الوقت بدأت (تجـارة الرقيـق الإفريقي) ما بين المشـترين الأوروبيين والباعـة الأفارقة، وكانت التجارة مقتصرة علـى المراكز التجارية السـاحلية، حيث يتم جلب العبيد الأسرى من الداخل بواسطة الوكلاء الأفارقة، ويُباعون بالشـروط المتفق عليها، ويتسـلّم التجار الأسلحة الأوروبية وأسـياخ الحديد والنحـاس وأوعية القصديـر والملابس والمشروبات الكحولية؛ في مقابل الذهب والعاج والعبيد.

ولكن حجم الرّق أخذ أبعاداً كبيرة بعد «حركة الكشوف الجغرافية» ووصول الأوروبيين إلى اكتشاف العالم الجديد، فقد أصبحت وقتها (تجارة العبيد واسترقاق ملايين البشر من الأفارقة) أمراً ذا أهمية كبيـرة في بناء إمبراطوريات الدول الاسـتعمارية وإنتـاج الثروات التـي فجّرت الثورة الصناعيـة بها فيما بعد، ففي الوقت الذي اُكتشـفت فيه أمريكا، ومع بداية تعميرهـا، ظهر أنّ الإفريقي هو الأكثر قوة ومقاومة، وقدرة على العمل الشـاقّ، وتحمّل الظروف المناخيـة المتشـابهة بيـن إفريقيا وأمريكا الوسـطى والجنوبية، ومن ثمّ صـار امتلاك العبيد من الزنوج مطلباً ملحّاً في النصف الغربي من القارة طوال مرحلة الاستعمار.

وموضوع هـذا البحث مـن الموضوعـات المعتبرة في تكويـن إفريقيا الحديث؛ لأنه يُعنى بواحدة من أبشـع الظواهر في تاريخ البشـرية، وهي (تجـارة الرقيق) التي استنزفت الطاقات البشرية للقارة الإفريقية على مدى عدة قرون في اتجاه أوروبـا والقارة الأمريكية، في انتهاك غير مسبوق لقيم الإنسانية.

وانطلاقاً من هـذا المدخل جاء هذا البحث الموجز، لعـرض الجانـب التاريخي لظاهـرة (التجـارة بالرقيق الإفريقي)، من خلال توضيح التنافس الاستعماري الأوروبي على نهب القارة الإفريقية وإفراغها من سـكانها، مع بيان الإحصاءات المسـجّلة لأعداد الأفارقـة العبيد، وموقف الكنيسـة في أوروبا من هذه التجارة، وصولاً إلى أثرها في القارة الإفريقية.

البرتغاليون والقارة الإفريقية :

بـدأ الاحتكاك الأول بين البرتغاليين والقارة الإفريقية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، بهدف الحصول على ما يلزم سـفنهم مـن مياه ومؤن في أثنـاء محاولتها الوصول إلى الشـرق الأقصى؛ ثم تطوّر الأمر إلى إنشـاء (مراكز تجاريـة) برتغالية على السـاحل الإفريقي الغربي في اتجاه الجنوب، ثم أصبحت بعد ذلك (مراكز لاسـتعمار القارة)، وكذلك (مراكز لصيد الأفارقة) بوصفهم عبيداً(١).

وقد وجـدت (التجارة بالرقيـق الإفريقي) رواجاً في أوروبا بعامّة، وفي البرتغـال بخاصة، ولذلك حاولت الفئة المسـتفيدة من تلك التجارة في البرتغال احتكارها بدافع الأرباح التي حقّقتها، وإبعاد الـدول الأوروبية عنها، وذلك

(*) عضو هيئة التدريس - جامعة ابن رشد - هولندا.

(١) جلال يحيى: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٩م، ص ١٣٥.

بتأمين حاجة الأسـواق منها، وهذا بدوره تطلّب منها جهداً إضافياً للحصول على المزيد من الرقيق، فعمدت إلى اتباع أساليب جديدة لتحقيق ذلك، وبأقلّ التكاليف.

وكبقية الدول الأوروبية؛ بـدأت البرتغال تجني فوائد الإنتاج القائم على (سواعد السود وعقول البيض) (Black brawn، White brain) داخل أوروبا، وفي مستعمراتها التي أخذت تؤسّسها في إفريقيا والأمريكتين[١].

ومن بين الأسـاليب الجديدة التـي اتبعتها البرتغال لزيـادة حجـم التجـارة بالعبيـد، حيث لم تعـد ترضى بالوسـائل التقليدية، والاكتفاء بما يؤمّنـه زعماء القبائل الإفريقية الموالين لها ولوكلائها في السواحل مقابل بعض البضائع والسـلع، كالأقمشـة والخمور والأدوات المعدنية والأسـلحة، أنها عمدت إلى زيادة عـدد وكلائها المورّدين لها على السـاحل الغربي[٢] والجنوبي، وزيادة عدد القلاع والحصـون تبعاً لذلك، حتى بلغ عددها في سـنة ١٦٤٢م خمـس محطات، كان آخرها محطـة المينا (El Mina) على «سـاحل الذهب» في غانا، وقامت بشـنّ غارات على بعض القبائل الآمنة، وحرق مزارعهم ومساكنهم، وأَسْرهم، حتى الذين تمكّنوا من الفرار كانوا طريدة سـهلة للصيادين المتربصين للإمساك بهم، وكان للأسلحة النارية دور كبير في نجاح تلك العمليات[٣].

وفي تطوّر آخر؛ بدأت تؤسّـس (شركات) لتلك الغاية، وحصلت على احتكارات مـن البلاط البرتغالي في مناطق محددة لها على السـاحل الإفريقي مقابل دفع مبالغ مالية سـنوية، ما جعل تلك التجارة أكثر بشـاعة، خصوصاً أنها أُوكلت إلى تجار لم يكن يهمّهم سوى الربح وزيادته[٤].

ولم يكتف البرتغاليون بالعبيد المجلوبين من السواحل، بـل توغّلـوا إلى الداخل بحثـاً عن العبيـد، فوصلوا إلى الكونغو، وبرغم أنهم حاولوا عقد معاهدة تحالف وصداقة مع الزعيم «نزنجا Nzinga»، إلا أنّ اكتشاف الأمريكتين، وظهـور الحاجة الملّحة للأيـدي العاملة في مزارع قصب السكر والتبغ، حوّلت تلك الصداقة مع الكونغو (Congo) إلى عداء وحروب.

وامتدّ النفـوذ البرتغالي إلى أنجولا (Angola) التي منحهـا التاج البرتغالي إقطاعاً للملاح باولو دياز (Baulo Dias)، والـذي عوّض إخفاقه فـي العثور على الذهب في تلك المنطقة بأن أصبحت أنجولا المصدر الرئيس لتجارة العبيد البرتغاليـة إلى البرازيل، والتي باتت تُلقّب باسـم «الأمّ السـوداء»، إشارة لشـهرتها في تجارة العبيد[٥]، ومن ثَمَّ إلى نيجيريا (Nigeria) التـي وصلها البرتغاليون في سـنة ١٤٤٤م، ومنذ ذلك التاريخ بدأت المراكب البرتغالية تُبحر من وإلى سـاحل نيجيريا، والتي سُميت باسم «ساحل العبيد».

وبمسـاعدة من بعض (التجار اليهود) أصبحت جزيرة ساوتومي (Sao Tome) مركزاً لتجارة العبيد، ومنها انتقلوا إلى سـاحل بنين (Benin)، حيث أنشـأت البرتغال هناك ميناء جواتو (Gwato) ليصبح مركزاً لتجميع العبيد في سنة ١٤٩٣م، إلى أن تمكّنت بريطانيا من كسر ذلك الاحتكار على يد التاجر البريطاني سير. جون هوكنز (John Hawkins Sir)[٦] في منتصف القرن السابع عشر.

(١) شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط ٢ - الرياض: دار الزهراء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ص ٥١.

(٢) البرتغاليون: هم مؤسسو مدرسة (الرّق) بكلّ مساوئه في العصر الحديث، فقد تطوّر الأمر حتى أصبح الساحل الغربي لإفريقيا مورداً مهمّاً للأيدي العاملة التي احتاج إليها الغرب لتعمير العالم الجديد، راجع: جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣م، ص ٥٨.

(٣) فقد انتشر استخدام البنادق في القارة، حتى أطلق بعض المؤرخين على (القرن السادس عشر) في إفريقيا تعبير (عصر البنادق)، راجع: شوقي الجمل، عبد الله عبد الـرازق: تاريخ إفريقيا، ص ٥٢.

(٤) Francoise Latour، Portuguese Participation in the Slave Trade، Reports and Papers of the meeting of experts organized by UNSO 31 January to 4 February 1978.- Paris، 1979. P. 125 .- 126

(٥) Basil Davidson، Kingdoms of the old Sudan: Black History. New York: Doubleday .&company، Inc، 1966. P. 36 – 37

(٦) محمود متولي: إفريقيا والسيطرة الغربية: دراسة تحليلية

وفي أوائل القرن السادس عشر أدت الرحلات البحرية الاستكشافية البرتغالية بقيادة أمريكو فسيبوتشي (Amrico Vispocci)، والإسبانية بقيادة كريستوفر كولومبس (Christopher Columbus)، ورحلات ماجلان (Magellan) بتشجيع من الملك شارلز (Charles)، إلى الكشف عن جزر الهند الغربية، ما أضاف أسباباً جديدة للحاجة إلى الرقيق الإفريقي، وبدأ العبيد الإفريقيون يُشحنون إلى أمريكا، حيث وصلت شحنات منهم إلى هاييتي (Haiti) في سنة ١٥١٠م، وكوبا (Cuba) في سنة ١٥٢١م(١).

التنافس الاستعماري الأوروبي:

في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ونتيجة لخضوع البرتغال للحكم الإسباني (١٥٨٠م -١٦٤٠م)، انتقلت التجارة بالعبيد إلى دول أوروبية أخرى، كإسبانيا وهولندا، وتبعهم الفرنسيون والإنجليز والدنماركيون(٢)، ما جعل تجارة العبيد حقلاً للمنافسة الحادة بين تلك الدول الراغبة بالربح، وبتأمين مستعمراتها الجديدة بالأيدي العاملة.

وأصبحت تجارة العبيد ركناً مهمّاً في التجارة الدولية النشطة آنذاك، والتي عُرفت بالتجارة المثلّثة (Triangular Trade)، والمتمثلة بنقل البضائع والسلع من أوروبا إلى إفريقيا، واستبدال العبيد بها، والذين يتمّ شحنهم إلى أمريكا، وهناك تُستبدل بالعبيد البضائع والمنتجات الأمريكية، من سكّر وتبغ ونيلة وقطن، وغير ذلك، لتُنقل عبر المحيط الأطلسي إلى أوروبا مرّة أخرى(٣).

ومن الشركات التي ساهمت في تجارة الرقيق:

١ - شركة إفريقيا الملكية.

٢ - شركة غينيا الفرنسية.

٣ - شركة وليام وماري الإنجليزية.

٤ - شركة البحر الجنوبي البريطانية.

٥ - الشركة الإفريقية.

٦ - الشركة البريطانية لتجارة ونقل العبيد من غرب إفريقيا.

٧ - شركة السنغال الفرنسية لنقل العبيد.

٨ - شركة جزر الهند الغربية الهولندية.

نقلت هذه الشركات الرقيق من أنجولا والكونغو وغينيا (Guinea) وغانا (Ghana) وموزنبيق (Mozambiq)، إضافةً إلى التجار الباحثين عن الثروة بصفتهم الفردية(٤).

وكانت أشهر قبيلتين إفريقيتين جنوب الصحراء هما الأشانتي (Ashanti) والفانتي (Fanti) (٥)، وكانت لهما سيطرة واضحة على باقي القبائل في غرب إفريقيا، وقد استعانت بريطانيا وفرنسا بهما لجلب العبيد إلى الساحل، تفادياً لصعوبة وخطورة التوغّل داخل أراضي إفريقيا المجهولة، وعملتا على إذكاء الفتنة والخلافات بين تلك القبائل لضمان استمرار الحروب بينها، وتبعاً لذلك ضمان تدفق أسرى الحروب بواسطة «الجلاّبة»(٦) إلى المراكز الساحلية.

وصوّرت بعض الدراسات الحديثة حول تجارة العبيد الوضع على أنّ الإفريقيين أنفسهم شاركوا بنصيب وافر من تلك التجارة، ولكن الحقيقة، كما وصفها رودني (Rodney) في بحثه حول (غرب إفريقيا وتجارة العبيد)، أنّ العديد من زعماء القبائل في غرب إفريقيا وجدوا أنفسهم أمام خيارين؛ فإمّا أن يتمّ أسرهم وأفراد عشيرتهم عبيداً، وإمّا أن يتعاونوا مع الأوروبيين بأسر أبناء القبائل الأخرى، حيث

للاستعمار البريطاني في نيجيريا حتى نهاية سنة ١٩٤٥م، القاهرة: مكتبة المعارف الحديثة ١٩٨١م، ص ٧٤ - ٧٥.

(١) Davidson, Op. Cit, p. 38.
وراجع أيضاً: كولين ماكيفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة: مختار السويفي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص ١٣٨.

(٢) محمود صفي الدين: إفريقيا بين الدول الأوروبية، القاهرة: د.ن، ١٩٥٩م، ص ٧٩.

(٣) Jeffrey Nash, The American People.- New York: Harper &Row Publishers, 1988. P. 10 - 11.

(٤) مسعود ضاهر: دراسة بعنوان «موقف الرأسمالية من الرّق: دراسة في المنهج»، ضمن كتاب: مسألة الرق في إفريقيا: بحوث ودراسات، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩م، ص ١٤٤.

(٥) لمزيد من المعلومات عن قبيلتي الفانتي والأشانتي؛ راجع: عايدة موسى: العبودية في إفريقيا والتاريخ المفقود، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م، ص ١٥٥ - ١٦٢.

(٦) الجلاّبة: هي الطّبقة التجارية التي تبلورت عن مجتمع تجار الرّقيق، فالجلاّبي لغة في جالب الرّقيق، تعني جالب البشر، وهو شخص ذو عقليّة طفيلية يمارس نشاط متاجرته بالبشر بشكل اقتصادي تجاري بحت.

يتمّ تزويد القبائل المتعاونة بالأسلحة مقابل ما يتم جلبه من عبيد، وفي مقابل مزيد من العبيد يتمّ تزويد القبائل المتعاونة بمزيد من الأسلحة[1].

أعداد العبيد الأفارقة:

في خضّم هذا التنافس الأوروبي على نهب القارة الإفريقية وإفراغها من سكانها، واتساع دائرة الحروب بين القبائل الإفريقية بعضها مع بعضها الآخر من جهة، ومع المستعمرين الأوروبيين من جهة أخرى، ونتيجة لتعدد الجهات والشركات والدول، فإنه يصعب إعطاء رقم دقيق للأعداد الحقيقية للأفارقة الذين تمّ شحنهم على متن السفن الأوروبية، أو أولئك الذين قضوا في أثناء مرحلة الجلب، أو على متن السفن، وهذا يبدو واضحاً من خلال تباعد الإحصاءات والأرقام واختلافها حول تلك المسألة، فقد قدّر البعض عدد العبيد الذين تمّ نقلهم من القارة الإفريقية على متن السفن الأوروبية بـ (٦,١٣٢,٩٠٠) خلال الفترة (١٧٠١م – ١٨٠٠م) موزّعة على النحو الآتي[2]:

جدول رقم (١)

الدولة	العدد
إنجلترا	٢,٥٣٢,٣٠٠
البرتغال	١,٧٩٦,٣٠٠
فرنسا	١,١٨٠,٣٠٠
هولندا	٣٥٠,٩٠٠
أمريكا الشمالية	١٩٤,٢٠٠
الدنمارك	٧٣,٩٠٠
السويد ودول أخرى	٥,٠٠٠
المجموع	**٦,١٣٢,٩٠٠**

في حين قدّرت مصادر أخرى عددهم بـاثني عشرة مليوناً، بينما ذكر البعض الآخر أنّ مجموع ما تمّ نقله من عبيد بلغ (١٤،٦٥٠،٠٠٠) موزّعة على النحو الآتي[3]:

جدول رقم (٢)

التاريخ	العدد
حتى بداية القرن السابع عشر	٩٠٠,٠٠٠
القرن السابع عشر	٢,٧٥٠,٠٠٠
القرن الثامن عشر	٧,٠٠٠,٠٠٠
القرن التاسع عشر	٤,٠٠٠,٠٠٠
المجموع	**١٤,٦٥٠,٠٠٠**

وفي كتاب وضعته اللجنة العلمية الدولية (The International Scientific Committee)، بدعوة من اليونسكو UNESCO، بعنوان (إفريقيا في أمريكا اللاتينية)، توصّلت اللجنة إلى اعتبار سنة ١٥١٨م هي بداية التجارة بالعبيد، وأنّ سنة ١٨٧٣م هي تاريخ نهايتها، وقد جرت خلال هذه الفترة (١٥١٨م – ١٨٧٣م) عمليات نقل وترحيل قسري للبشر، هي الأكبر من نوعها في التاريخ الإنساني، إذ قدّر عدد العبيد الذين وصلوا إلى أمريكا بما لا يقلّ عن تسعة ملايين ونصف المليون، للعمل في ستة قطاعات للإنتاج، هي: (السكّر، البّن، التبغ، القطن، الأرز، وقطاع المناجم والتعدين)[4].

كما أشار التقرير إلى أنّ هذا الرقم يعني أنّ القارة فقدت خلال (فترة التجارة) ما معدّله (٥٠ مليون إنسان

(١) Walter Rodney. The West African and the Atlantic Slave Trade.- Dar-es-salaam: The Historical Association of Tanzania. 1967. P.7.

(٢) Philip D. Curtin. The Atlantic Slave Trade A Census.- Madison. Wisconsin: The University of Wisconsin Press. 1969. p. 268.

(٣) Encyclopedia of American Ethnic Groups. E.B: Stephan Thernstorm.- Massachusetts: Harvard University Press. 1980. P. 6.

(٤) Joseph E. Inikori. The Slave Trade and the Atlantic Economies (1451 - 1870). Reports and Papers of the meeting organized by UNECSO at Port-au- Prince. Haiti. 31 January to 4 February 1978. In: The African Slave Trade from the fifteenth to the nineteenth Century.- Paris: UN Educational. Scientific and Culture Organization. 1979. P. 56 - 59.

إفريقي)، على اعتبار أنّ أسيراً واحداً من بين كلّ خمسة أسرى كان يصل سالماً إلى أمريكا، أمّا الباقون فكانوا يموتون بسبب العنف والقتل والمرض والجوع[١]، ونلاحظ أنّ هذا الرقم يرتفع ليصل إلى (٤٠ مليوناً) خلال القرن الثامن عشر عند بعض الباحثين[٢]، وذهب البعض إلى أنّ مجموع ما خسرته القارة الإفريقية من ثروة بشرية بسبب تجارة العبيد يصل إلى (١٠٠ مليون إنسان إفريقي)[٣].

ولا يبدو هذا التفاوت مستغرباً إذا أخذنا بعين الاعتبار عدة أمور:

١ - طول المدّة التي استغرقتها تلك التجارة، وتعدّد المناطق التي أُخذ منها العبيد، وتعدّد الدول المشاركة فيها، واشتراك الجهات غير الرسمية أو غير الحكومية فيها.

٢ - القرصنة، وما نتج عنها من اختفاء أية سجلات خاصة بسفن نقل العبيد، بالإضافة إلى استمرار عمليات صيد العبيد ونقلهم إلى مناطق أخرى غير أوروبا وأمريكا، مثل آسيا الصغرى، ومصر، وشبه الجزيرة العربية والهند.

٣ - تعّرض أعداد كبيرة من العبيد للموت خلال عملية اقتيادهم من داخل إفريقيا إلى الحصون والقلاع الساحلية، والصعوبات الناجمة عن قطع مسافة طويلة عبر المحيط الأطلسي إلى الأمريكتين، وما رافق ذلك من الموت بسبب المعاملة السيئة والأمراض والقتل في حالات التمرد.

٤ - استمرار هذه التجارة بعد صدور القوانين في بريطانيا والعديد من الدول الأوروبية بتحريمها ابتداءً من سنة ١٨٠٨م، وذلك على صور مختلفة وبطرق سّرية، حيث استمر العمل بهذه التجارة حتى سنة ١٨٨٨م حين أعلنت البرازيل تحريمها لتلك التجارة؛ بعد أن سبقتها كوبا إلى ذلك الإعلان بعامين[٤].

أمّا بالنسبة لنصيب أمريكا الشمالية من تلك التجارة، فهناك تفاوت واضح في الأرقام والإحصاءات حول أعداد العبيد الذين نُقلوا إليها، فقد قدّرها جورج بانكروفت (George Bancroft) بقرابة (٥٣٠,٠٠٠ عبد)، تم نقلهم إلى المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية حتى قيام الثورة في سنة ١٧٧٥م، لكنّ آخرين، مثل كيري (H.C.Carey)، وجدوا أنّ هذا الرقم مبالغ فيه، حيث قدّروا أعداد أولئك العبيد الذين تمّ نقلهم إلى أمريكا الشمالية حتى سنة ١٧٩٠ بقرابة (٢٣٦،٥٠٠)، مضافاً إليهم (٧٠,٠٠٠ عبد) للفترة ما بين (١٧٩١م - ١٨٠٧م)، ليصبح المجموع الكلي قرابة (٣٣٣،٥٠٠ عبد)[٥]، ويرتفع هذا الرقم عند كرتن (Curtin) ومعظم المؤرخين الأمريكيين ليصل إلى (٤٠٠,٠٠٠)، مؤكدين أنه لا أحد بإمكانه إعطاء رقم دقيق عن حجم تلك التجارة بعد سنة ١٨٠٨م، وقدّروها بقرابة (٢٥٠,٠٠٠ - ٢٧٠,٠٠٠)[٦].

وبالرجوع إلى إحصاءات السكان في الولايات المتحدة الأمريكية لسنة ١٧٩٠م - وهو العام الذي سُجّل فيه أول إحصاء رسمي للسكان- نجد أنّ عدد العبيد في تلك السنة بلغ (٢٠٨,٧٥٧)، حتى أصبح سنة ١٨١٠م (١,٧٧٣,٨٠٨)، وهذا يجعلنا نشّك في الأرقام التي قدّمها المؤرخون الأمريكيون حول حجم تلك التجارة، سواء بعد إلغائها قانونياً في سنة ١٨٠٨م أو قبل ذلك التاريخ، خصوصاً أن الإحصاء نفسه يشير إلى أنّ عدد السود في الولايات المتحدة بلغ في سنة ١٨٦٠م (٤,٤٤١,٨٣٠)[٧]، ما يعني أنّ هناك فرقاً

(١) Michèle Duchet. Reactions to the problem of the slave trade: an historical an ideological study. Reports and Papers of the meeting organized by UNECSO at Port-au- Prince. Haiti. 31 January to 4 February 1978. In: The African Slave Trade from the fifteenth to the nineteenth Century.- Paris: UN Educational. Scientific and Culture Organization. 1979. P. 31 - 43.

(٢) شوقي الجمل، عبد الله عبد الرازق: تاريخ إفريقيا، ص ٥٣.

(٣) جمال زكريا قاسم: دراسة بعنوان «العرب والرّق في إفريقيا»، ضمن كتاب: مسألة الرّق في إفريقيا: بحوث ودراسات، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩م، ص ١٤٧.

(٤) اعترافاً من الأسرة الدولية، وبخاصةً الدول الأوروبية التي ساهمت بشكل كبير في تجارة العبيد، فقد حدّدت الجمعية العامّة للأمم المتحدة يوم (٢ ديسمبر) من كلّ عام للاحتفال بإلغاء تجارة الرقيق، كما حُدّد يوم (٢٣ آب) يوماً عالمياً لتذكّر تجارة الرقيق والمأساة التي حلّت بضحاياها.

(٥) H.C. Carey. The Slave Trade. Domestic and Foreign.- Philadelphia. 1872. P. 18.

(٦) Ibid.، p. 72

(٧) Historical Census Statistics on Population Totals by Race. 1790 to 1990. and by Hispanic Origin. 1790 to 1990. for the United States. Regions. Divisions. and States. by: Campbell Gibson and Kay Jung. Working Paper No 56. US

بين الأرقـــام المقدَّمة من قِبل الباحثيـــن الأمريكيين وبين إحصاءات الســـكان الرســـمية، وهو فارق لا تغطيه نسبة الزيـــادة الطبيعية للعبيد الناتجة عـــن زيادة عدد المواليد بينهم، نظراً للمشكلات الاجتماعية والظروف القاسية التي عانتها (الأســـرة الزنجية) في المجتمع الأمريكي، والمؤكد أنّ هذه الأرقام المبيّنة قـــد أغفلت أولئك الذين ماتوا في أثناء النقل، أو بعد أن نزلوا على الأرض الأمريكية بســـبب الظروف الصعبة والأمراض التي نقلها إليهم الأوروبيون.

وعلى ما يبدو فإنّ أمريكا، وبعد أن انتزعت استقلالها من بريطانيا في ســـنة ١٧٨٣م، أنشأت تجارة رقيق خاصة بهـــا، حتى إنها أدت الدور الأكبر في تلك التجارة منذ ذلك التاريخ وحتى خمسين سنة بعد استقلالها[(١)]، ويؤكد بورستن (Borston) أنّ العبيد المستوردين من جزر الهند الغربية وإفريقيا لم يتمّ تســـجيلهم، لأنّ تجـــارة العبيد الخارجية أصبحت غير قانونية بعد سنة ١٨٠٨م، وكانت الإحصائيات تخفي الحقائق المتعلقة بالسود[(٢)].

ومهما يكن العدد الصحيح لتلك التجارة؛ فإنه من الملاحظ أنّ إنجلترا حازت نصيب الأســـد فيها، وأنّ القرن الثامن عشر هو القرن الذي بلغت فيه هذه التجارة قمّة نشـــاطها، خصوصاً إذا علمنا أنّ بريطانيا تمكّنت من كسب حروب بحرية كثيرة ضد قراصنة ســـفن العبيد في البحر، وضد الدول الأوروبية الأخرى المنافسة لها، واحتكرت تجارة الرقيق لصالحها، ونالت شركاتها حقّ نقل العبيد إلى المستعمرات الإسبانية في أمريكا منذ سنة ١٧١٣م، وتحوّل الرأسماليون البريطانيون إلى أكبر تجّار للرقيق في العالم، واستخدمت لتلك الغاية حوالي (١٩٢) سفينة، نقلت قرابة (٥٠) ألف زنجي في الرحلة الواحدة، وذلك بعد أن بدأت إنجلترا بتأسيس مستعمراتها في أمريكا الشمالية.

موقف الكنيسة من تجارة العبيد:

أمّا بالنسبة للكنيسة في أوروبا؛ فقد نظرت إلى إفريقيا على أنها أرض الوحوش، وأكلة لحوم البشر، ومعقل الوثنية، ولذلك أجـــازت التجارة بالعبيد على اعتبـــار أنها تخلّص أولئـــك الوثنيين مـــن حياتهم القاســـية المليئة بالأمراض والأوبئـــة، والأهمّ من ذلك أنها تعلّمهم مبادئ المســـيحية، وتنتشلهم من حالة التدّني والتخلّف إلى الحضارة والتقدّم.

وليس أدّل على تلك النظرة مما ورد في مقالة لكاثرين جـــورج (Kathryn George) بعنـــوان (الغرب المتمدّن ينظـــر إلـــى إفريقيا)، حيـــث ورد فيـــه: «إفريقيا.. حيث الرجال المتوحشون والنســـاء المتوحشات.. لأكثرهم لون أسود، وأنوف مفلطحة، وشعر يشبه الصوف، أما طبيعتهم فمتوحشة تمام التوحش، وتشبه طبيعة الحيوانات الضارية، وهم بعيدون عن الرأفة الإنسانية فيما بينهم... لا يتخذون عادات الحياة المتمدنة كما هي عند بقية الجنس البشري، ويتناقضون تمام التناقض مع ما نحن عليه... إنها شـــعوب فوضوية متهتكة قاســـية، تعيش حيـــاة الحيوانات لا حياة البشـــر... أما عاداتهم في المـــأكل والملبس فهي عادات حيوانية لا إنسانية، وهم يمارسون الجنس كالحيوانات: الأب مع ابنته، والأخ مع أخته... وهم يأكلون اللحم البشري»[(٣)]!!

ونجح المبشـــرون البرتغاليون في القرن الخامس عشـــر في تحويل بعض القبائل إلى المســـيحية، إلا أنهم ســـرعان ما انغمسوا في تلك التجارة، وامتلكوا العبيد والجواري، وبدلاً من توجّيه الجمعيات التبشيرية نشاطها وجهودها لنشر المسيحية أصبح اهتمامها منصبّاً على تجارة العبيد، وهذا ما دفع ببعض القبائل التي اعتنقت المسيحية إلى الرجوع عن الدين الجديد نتيجة الممارسات الخاطئة للمبشّرين المسيحيين في بلادهم.

وقد علّل رودني والتر (Rodney Walter) الأسباب التي جعلت الكنيســـة تغضّ الطرف عن تلك التجارة بأنها كانت تجني أموالاً ضخمـــة من تلك التجارة، ولذلك رفض رجال الدين المســـيحيون الاســـتماع إلى ضمائرهم، برغم

Census Bureau، Washington DC، September 2002، P. 29.

(١) Sayyid Sa'eed Akhtar Rizvi، Slavery: From Islam and Christian Perspectives، India، November ١٩٨٧، Available in ٢٤ June ٢٠٠٦ at: (http://www.al-islam.org/slavery/).

(٢) دانيّل بورستن: الأمريكيون: التجربة الوطنية، ترجمة: فاروق منصور، عمان: مركز الكتاب الأردني، ١٩٩٣م، ص ٢٥٨.

(٣) كاثرين جورج: الغرب المتمدن ينظر إلى إفريقيا، ترجمة: محمد عصفور، الكويت، ١٩٨٢م، ص ٢٥٩ – ٢٨٤، (سلسلة عالم المعرفة: ٣٥).

معرفتهم بالمعاناة التي يلاقيها العبيد، سـواء خلال عملية الصيد أو خلال مرحلة النقل إلى الشواطئ، ومن ثَمَّ الشحن والرحلة البحرية عبر الأطلسي، وأخيراً المعاناة الأشد في واقعهم الجديد في مستعمرات أمريكا، وسمحت لقساوستها بالمشاركة في تلك التجارة، خصوصاً في أنجولا[١].

وقـد ظهرت في أوروبـا بعض الأصـوات والجمعيات والطوائف الدينية التي احتجّت على التجارة بالبشـر، ولكن الكنيسـة اعتبرت تلك الأصوات نداءً لبقاء أولئك الإفريقيين أو المتوحشـين (Savages) - على حـدّ تعبير رجال الدين المسيحيين - على وثنيتهم وبمنأى عن التقدّم. ومن الجمعيات والطوائف الدينية التي ظهرت في أوروبا وعارضت الرّق:

- طائفة الميثوديين (Methodist)[٢].
- والكويكرز (Quakers)[٣].
- وجمعية مناهضي الرّق (Antislavery Society).
- وجمعية أصدقاء السود (Society of the Friends of the Blacks) التي ظهرت في فرنسا في سنة ١٧٨٨م.

حيث أدانـت جميعهـا مؤسسـة الـرّق والقائمين عليها والمشـجعين لهـا[٤]، ولكن حماس تلـك الطوائف والجمعيات لم يكن ليثني الجزويت (Jesuit)، والدومنيكان (Dominican)، والفرانسيسـكان (Franciscan)، عن دعمهم لتلك التجارة، حيث انغمسـوا فـي تجارة الرقيق وجمع الأموال بهدف دعم الكنيسـة الكاثوليكية[٥]، إضافة إلى تقاضي الكنيسـة رسـماً عن كلّ عبد يتـم تنصيره، عُرف باسم «رسـم التعميد»[٦]، واعتبر بعض رجال الدين المسيحيين مسألة الرّق من صميم التوراة، وأنها لعنة حلّت بأبناء (حام) بن نوح (عليه السـلام)[٧]، فالمسألة قدر من الله، وما تلك التجارة بالعبيد إلا تنفيذ لإرادة الرّب!!

ودرسـت الكنيسـة الأوروبيـة موضـوع تجـارة الرقيق ومشـروعيتها، وخلصت إلـى نتيجة جواز تلـك التجارة وعدم معارضتها لمبادئ الكنيسة، ففي سنة ١٦١٠م أرسل قسّ كاثوليكي يُدعى الأب سـاندوفال (Sandoval) خطاباً إلى أحد موظفي الكنيسة في روما يسأله إن كان أسر السود الأفارقة واستعبادهم شرعياً حسب مبادئ الكنيسة، وجاء الرد في خطاب مؤرّخ في ١٢ مـارس (آذار) ١٦١٠م كالآتي: «من الأخ لويس براندون (Louis Brandon)... تقول في خطابك أنك تود معرفة ما إذا كان أسر الزنوج الذين يتمّ إرسـالهم إليكم من إفريقيا شرعياً، وعن هذه القضية أقـول إنني أعتقد أنه يجب ألّا يكون لديك أدنى شّـك في ذلك، لأنّ هذا الأمر قد تمّت مناقشـته من قبل في (مجلس الضمير) في لشـبونة، وكلّ أعضاء هذا المجلس من أهل العلم والخلاص، ولا يـرون أي خطأ في ذلك، ونحـن نعمل هنا منذ أربعين عاماً، وبيننا آباء عالمون... لم ينظروا قطّ إلى هذا الأمر على أنه غير مشـروع، وبالآتي فإننا وآبـاء آخرين في البرازيل نقتني هؤلاء العبيد لخدمتنا دون تردد أو حيرة»[٨].

أثر تجارة العبيد في القارة الإفريقية:

وإذا كانـت تجارة العبيـد قد عـادت بالفائدة على أوروبا ومسـتعمراتها، بما وفرّته من دفع قوي للرأسمالية الصاعدة، وقيام طبقة من الأثرياء الذين استطاعوا تمويل المشاريع الصناعية في أوروبا وأمريكا، وزيادة حجم الإنتاج

(١) Rodney، Walter، Op. Cit، p ٢٢.

(٢) الميثودية: حركة دينية إصلاحية ظهرت في أكسفورد سنة ١٧٢٩م، وقادها تشارلز وجون وزلـي، في محاولة للنهوض بالكنيسة وإصلاحها.

(٣) الكويكرز: طائفة ظهرت في إنجلترا، نادت بالصداقة الإنسانية ومقاومة الحروب.

(٤) Rodney، Walter، Op. Cit، p ١٨.

(٥) Williams Eric، Capitalism and Slavery.- London: Andre Deutsch، ١٩٦٤. P. ٤٢.

(٦) زاهر رياض: الاستعمار الأوروبي لإفريقيا، القاهرة، د.ن، ١٩٥٧م، ص ١٣٨.

(٧) تستند هذه الفرضية إلى ما ورد في التوراة (المحرّفة) من أنّ نوحاً (عليه السلام) لعن ابنه (حام)، ودعا ربّه أن يجعله هو وأولاده عبيداً لأخويه (سام) و (يافث) ولأولادهم من بعدهم، ذلك أنّ نوحاً (عليه السلام) - كما تزعم الرواية - شرب الخمر فسكر وتعرّى داخل خيمته (!!)، فأبصر (حام) عورة أبيه، فأخبر أخويه بما رأى، فدخلا على أبيهما وسترا عورته، فلمّا استيقظ نوح (عليه السلام) وعلم بالأمر دعا على ابنه (حام) ولعنه تلك اللعنة، وبها حلّ استرقاق الزنوج. انظر: (سفر التكوين، إصحاح ٩:٢٠-٢٧)، نقلاً عن: عبد السلام ترمانيني، بحث بعنوان «تنظيم تجارة الرق في أوروبا وأمريكا»، ضمن كتاب: مسألة الرّق في إفريقيا: بحوث ودراسات، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩م، ص ٢٠٦.

(٨) هوارد زن: التاريخ الشعبي للولايات المتحدة من ١٤٩٢م حتى الآن، ترجمة: شعبان مكاوي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م، (ج ١ / ص ٦٧ – ٦٨).

ونوعيته، واتساع خطوط تجارتها مع العالم، فإنها كانت كارثة إنسانية حلّت بإفريقيا، يمكن إجمالها فيما يأتي:

- فقدت القارة عشرات الملايين من سكانها، ومن فئة الشباب تحديداً، على اعتبار أنهم كانوا الفئة المرغوبة لدى التجار الأوروبيين والأعلى ثمناً.

- تأخّر التطوّر والتقدّم في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، وذلك بسبب نقص الأيدي العاملة القادرة على استثمار موجودات القارة، واتباع سياسة تجارية مع سكان إفريقيا قامت على اعتبار إفريقيا سوقاً استهلاكية فقط.

- شيوع الفوضى وانعدام الأمن، ولفترات طويلة، وعلى امتداد مساحات واسعة من القارة، نتيجة للحروب التي دارت بسبب تلك التجارة بين الإفريقيين أنفسهم، وبين الإفريقيين والأوروبيين من جهة أخرى.

- قيام اقتصاد إفريقي ساحلي لصالح الدول الأوروبية، اعتمد بشكل رئيس على تجارة العبيد وما تدّره من أرباح، ولكن هذا الاقتصاد سرعان ما انهار وتلاشى بشكل مفاجئ بعد توقّف تجارة العبيد اعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ما سبّب فوضى كبيرة انعكست على كثير من الدول والممالك الإفريقية بشكل سلبي.

- مهّدت تجارة العبيد لاستعمار القارة الإفريقية من قِبل الدول الأوروبية، ذلك الاستعمار الذي دام حتى ستينيات القرن العشرين.

- انهيار النظام الاجتماعي والأُسري في إفريقيا، بسبب ما لاقته الأُسرة الإفريقية والنظام القبلي السائد آنذاك من تفكّك بفعل الحروب الدائرة بهدف أسر العبيد، وبسبب الأعداد الكبيرة التي تمّ شحنها خارج القارة[1].

- اختلال النظام السياسي الذي كان سائداً في علاقات الدول والممالك الإفريقية، وفي علاقات القبائل فيما بينها، وذلك بفعل الحروب والتحالفات التي قامت من أجل الحصول على العبيد، ما ترك أثراً واضحاً في علاقات الدول الإفريقية بعضها ببعض[2].

- الآثار النفسية العميقة في الكيان الإفريقي، والشخصية الإفريقية، وفي إعدادها وتربيتها وتكوين القناعات في داخلها، فالاسترقاق كانت له أبعاد أخطر مما في ظاهر الأمر، حيث انبثق عن فلسفة متكاملة من النظرة الدونية إلى الإفريقي وقيمته، والتي لا تعدل (في نظر تلك الفلسفة) قيمة الحيوان، وعن مبدأ التعامل معه بامتهان شخصيته، وإهدار كرامته، وتكوين الشعور بالنقص والدونية في داخله، وإفقاده الثقة في نفسه، وسلب إرادته، وتوريثه حالة من الضعف والعجز لضمان إذعانه واستسلامه وانقياده بوصفه عبداً لسيده، بل توريث ذلك لجيل الأبناء، فإنّ (تربية العبودية) كانت فلسفة لها منطلقاتها وأهدافها ومبادئها وأساليبها ووسائلها.

- معاناة الشتات الإفريقي، واغتيال أكثر من عشرة أجيال من (الأفرو - أمريكيين) ثقافياً، وسياسياً، واقتصادياً وإنسانياً، حيث حُرموا من أي نموٍّ اقتصاديٍّ أو ثقافيٍّ، ووُضعوا بإحكام في قاع السلّم الإنساني وخارج السلّم الاجتماعي.

خاتمة:

وبذلك ربطت المصلحة المشتركة بين الشركات الرأسمالية الأوروبية، والقوى المسيطرة داخل أوروبا والولايات المتحدة، والإرساليات التبشيرية، وأصحاب المزارع والمصانع والمناجم في أوروبا وأمريكا، وزعماء القبائل الأفارقة، وتجاّر العبيد، حيث وجدت هذه الجهات في (تجارة العبيد) مصدر ثروة وطاقة إنتاجية عظيمة، قادرة على العمل في ظروف مناخية وحياتية صعبة، فتنافس الجميع للحصول على أكبر قدر من هذه الثروة البشرية، وبأبشع الوسائل، ولعلّ هذا ما يفسّر القسوة والوحشية التي لاقاها العبيد الذين تمّ أسرهم تمهيداً لنقلهم إلى الأمريكتين، في مشهد منظّم لجريمة ذات يد باطشة، ضربت القارة الإفريقية، وأوقفت نموّها الحضاري، وأفسدت نسيجها الاجتماعي!!

(١) عطية عبد الكامل: تجارة الرقيق الأوروبية وأثرها على شعوب غرب القارة الإفريقية خلال القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين، دورية (كان) التاريخية (علمية، مُحكّمة، ربع سنوية) - العدد العشرون؛ يونيو ٢٠١٣م، ص (٩٧ - ١٠٢).

(٢) محمود متولي: إفريقيا والسيطرة الغربية، ص ٩.